مريم تعتزل وتصمت وعيسى يتحدث

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (38) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

لم تكن الرهبانية بدعةً انفرد بها النصارى فحسب، بل سبقهم إليها اليهود حين تعنّتوا مع نبيهم موسى عليه السلام وشدّدوا على أنفسهم في المسألة والتكاليف، فشدّد الله عليهم جزاء وفاقاً؛ إذ الرهبانية في حقيقتها صورة من صور الغلوّ والتنطّع في الدين ومجاوزة الحد المشروع. وقد حذّر النبي ﷺ من هذا المسلك الوخيم تحذيراً بالغاً بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ» [1].

إن شريعة الأنبياء جميعاً –بدءاً من ملة إبراهيم عليه السلام الحنيفية السمحة– قائمة على التوحيد والاعتدال، ولم يُشرع فيها البتة الانقطاع عن الزواج أو هجر الطيبات تعبّداً؛ لما في ذلك من مصادمة صريحة للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها. وبعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام، غلا أتباعه في الدين وابتدعوا ما لم يأذن به الله، فأنشؤوا الصوامع والديارات، وحبسوا أنفسهم فيها عن مخالطة الخلق وعن الزواج[2]، وقد أخبر النبي ﷺعن مآلهم بقوله: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾»[3].. ويزداد هذا المعنى رسوخاً بحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا» متفق عليه.

---

[1]) رواه ابن ماجة ج9 ص 134 رقم 3020 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 177 رقم 2455
[2]) صالح بن فوزان : إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ج1 ص 264
[3]) رواه أبو داود ج13 ص 57 رقم 4258

ومن بديع حكم الله في قصة الصدّيقة مريم ابنة عمران عليها السلام، أنه سبحانه لما اصطفاها على نساء العالمين لتكون آية في القنوت والانقطاع للطاعة –حتى سُمّيت بالبتول لانقطاعها عن الرجال وتفرغها للعبادة[4]– لم يحرمها سبحانه من نعمة الأمومة، بل أجرى على يديها معجزة كبرى بأن وهبها ولداً من غير أب. وقد تضافرت في هذه المعجزة الإرادة الكونية القدرية مع المقاصد الشرعية؛ فأراد الله أن يُري قومها أن التفرغ للعبادة لا يصادم السنن الفطرية ولا يعطّل غاية الإنجاب وإعمار الأرض. ثم جاء إنطاق المسيح عليه السلام في المهد بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30]، ليكون ذلك برهاناً قاطعاً على كمال توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وإثباتاً لعبودية عيسى عليه السلام لله، وفي الوقت ذاته إبطالاً لشبهات الغلاة الذين زعموا أن التبتل والترهبن وقطع النسل هو سبيل القرب من الله.

وقد جاءت الشريعة المحمدية الخاتمة لتُقرّر هذا الميزان الدقيق بين حقوق الروح ومتطلبات الجسد؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله في السر، فكأنهم تقالّوه، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا! لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» متفق عليه[5]. فالعزلة في الإسلام ليست مطلقة ولا دائمة، بل هي مقيدة بضوابط شرعية تتحقق بها المصلحة وتُدرأ بها المفسدة، كالاعتكاف المسنون أو اعتزال الفتن عند فساد الزمان، دون تعطيل للواجبات الشرعية والاجتماعية.

ويُستدل على بطلان الرهبانية في الشرائع السابقة أيضاً بقاعدة أصولية مقررة عند أهل العلم، وهي أن أصل دين الأنبياء واحد في العقائد ومكارم الأخلاق ومراعاة الفطرة، وإن اختلفت بعض الفروع؛ فكما أن «شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ»، فإن ما ثبت ذمّه وتحريمه في شريعتنا لمخالفته أصل الفطرة ومقاصد الخلق –كالتبتل المفضي إلى قطع النسل– فهو مذموم في سائر الملل السماوية؛ لأن الله تعالى لا يشرع لعباده ما يناقض فطرته التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: 30).

وبذلك يتجلى أن معجزة ميلاد المسيح عليه السلام جاءت لتُصحح مسار التطرف وتردّ الناس إلى جادة الاعتدال؛ فلا يُمنع الإنسان من حقّه الفطري في الزواج وبناء الأسرة بحجة التدين، إذ إن حقيقة التبتل المشروع إنما هي إخلاص القلب لله وتجريده من التعلق بغيره أثناء العبادة، لا تعطيل السنن الكونية ولا قطع النسل البشري.

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ[6] إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) (16) هنا يضرب الله مثالا بمن عدها النبي ﷺ من بخير نساء الأرض ، مريم التي مدحها النبي بأنها من أربع نساء في العالم كمل عقلهن ، مريم ابنة عمران التي نذرتها أمها خالصة لوجه الله وهي في بطنها ؛ فتقبلها ربها بقبول حسن ، آوت إلى كنف نبي الله زكريا عليه السلامر، فصارت

---

[4]) فتح الباري ج9 ص 118 ،شرح النووي على مسلم ج9 ص 176 غريب الحديث لابن الجوزي ج1 ص 54 ، التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 208 ، تفسير الطبري ج23 ص 687

[5]) رواه مسلم رواه مسلم ج7 ص 175 رقم 2487

[6]) قال ابن كثير (وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمّها لها في "آل عمران"، وأنها نذرتها محررة، أي: تخدم (2) مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } [آل عمران: 37] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت (3) إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة (4) والتبتل والدءوب، وكانت في كفالة زوج أختها -وقيل: خالتها-زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر (5) الشتاء في الصيف وثمر (6) الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في "آل عمران". فلما أراد الله تعالى -وله الحكمة والحجة البالغة-أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، { انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.)

مريمُ ملازمة لمحراب الطاعة، وقد عزفت عن زخرف الدنيا وبهرجها، وانقطعت بقلبها إلى مناجاة ربها، حتى صدق فيها قول الشيخ الشعراوي رحمه الله" :فكأن أُنسها لا بالأهل، ولكن أُنسها كان برب الأهل."[7].

وهذه الخلوة الروحية، وإن كانت من شرائع من قبلنا، إلا أن لها في شريعتنا الغراء أصلًا أصيلًا وموردًا عذبًا، لكنه محفوفٌ بضوابط الاعتدال دون غلوٍ أو إسراف. فقد كان قدوتنا محمد ﷺ يحيي سنة الاعتكاف، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ كُلَّ رَمَضَانَ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا»[8]، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ «كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ[9]»؛ فيحبس نفسه الشريفة في رحاب المسجد، منقطعًا عن شواغل الخلق، عاكفًا على تلاوة كتاب ربه، معمورًا وقته بالصلاة والذكر والتسبيح.

ومن هذا الهدي النبوي نستلهم حقيقة الاعتكاف وحدوده في ميزان الشرع[10] ؛ فهو عبادةٌ تتهذب بها الروح دون أن تصطدم بعمارة الأرض، أو تعطل مسيرة السعي في طلب الرزق، وقضاء حوائج الناس، ورعاية الأهل. فلم تكن العبادة يومًا ولا الدعوة إلى الله قيدًا يعزل المرء عن مجتمعه، بل الإسلام دين الوسطية والاتزان، كما أرشدنا المصطفى ﷺ بقوله: "الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا".[11]

ولأجل حفظ هذا التوازن الدقيق، تباينت أنظار الفقهاء في حكم الاعتكاف في غير رمضان؛ فبينما ذهب الحنابلة إلى سنيته في كل وقت[12] ، نجد الشيخ ابن عثيمين رحمه الله يقف وقفة تأمل وتحقيق، مبينًا أن الأحكام الشرعية تُتلقى من هدي الرسول ﷺ، ولم يُنقل عنه ولا عن صحابته اعتكافٌ في غير رمضان إلا قضاءً، ولو كان مشروعًا على الإطلاق لاشتهر واستفاض لتوافر الدواعي لنقله، أما قصة نذر عمر رضي الله عنه أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام وإجازة النبي ﷺ له بقوله: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ»، فهي واقعة عين في الوفاء بالنذر لا تشريعًا عامًا يُندب إليه الناس في سائر العام[13].

وفي المقابل، استدل جمهور العلماء على مشروعيته في كل وقت بعموم الأدلة، مستأنسين بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين ضربت له ﷺ خباءً في المسجد، فتنافست أمهات المؤمنين حفصة وزينب رضي الله عنهن في ضرب الأخبية، فلما رآها النبي ﷺ قال: «آلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟»[14]، فترك الاعتكاف في رمضان ثم اعتكف عشرًا من شوال؛ فرأى الجمهور في فعله في شوال دليلًا على جوازه في غير رمضان[15]،، بينما أجاب الآخرون بأنه كان قضاءً لسنة رمضان الفائتة. ومن خلال هذا السجال العلمي الرصين، يتجلى مدى حرص العلماء واحترازهم في هذه المسألة، خشية أن يتخذ الناس الاعتكاف الدائم ذريعةً للتواكل والانصراف عن أعباء الحياة وأعمالها.

---

[7]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5519
[8]) رواه أبو داود ج6 ص 464 رقم 2110
[9]) رواه البخاري ج7 ص 156 رقم 1885
10) الاعتكاف لغة: اللبث وملازمة الشيء أو الدوام عليه خيراً كان أو شراً. ومنه قوله تعالى: {يعكفون على أصنام لهم}[الأعراف:7/138] وقوله: { ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون} [الأنبياء:21/53] وقوله سبحانه: {ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} [البقرة:2/187].
أما تعريفه في اصطلاح الفقهاء متقارب ، قال الحنفية (1) : هو اللبث في المسجد الذي تقام فيه الجماعة، مع الصوم، ونية الاعتكاف، فاللبث ركنه؛ لأنه ينبئ عنه، فكان وجوده به، والصوم في الاعتكاف المنذور والنية من شروطه. ويكون من الرجل في مسجد جماعة: وهو ماله إمام ومؤذن، أديت فيه الصلوات الخمس أو لا، ومن المرأة: في مسجد بيتها: وهو محل عينته للصلاة، ويكره في المسجد، ولا يصح في غير موضع صلاتها من بيتها.
وقال المالكية (2) : هو لزوم مسلم مميز مسجداً مباحاً لكل الناس، بصوم، كافاً عن الجماع ومقدماته، يوماً وليلة فأكثر، للعبادة، بنية. فلا يصح من كافر، ولا من غير مميز، ولا في مسجد البيت المحجور عن الناس، ولا بغير صوم، أي صوم كان: فرض أو نفل، من رمضان أو غيره، ويبطل بالجماع ومقدماته ليلاً أو نهاراً، وأقله يوم وليلة ولا حد لأكثره، بقصد العبادة بنية، إذ هو عبادة، وكل عبادة تفتقر للنية.
وعبارة الشافعية (3) : هو اللبث في المسجد من شخص مخصوص بنية.
وعبارة الحنابلة (4) : هو لزوم المسجد لطاعة الله ، على صفة مخصوصة، من مسلم عاقل ولو مميزاً ، طاهر مما يوجب غسلاً، وأقله ساعة،
انظر : الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ج3 ص 121
[11]) رواه البخاري ج20 ص 99 رقم 5982
[12]) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ج1 ص 321 ، البهوتي : الروض المربع شرح زاد المستقنع ج1 ص 167
[13]) الشرح الممتع على زاد المستقنع ج6 ص 504
[14]) رواه البخاري ج7 ص 168 رقم 1892
15) أ . د / خالد بن علي المشيقح / فقه الاعتكاف ج1 ص 16

ثم نعود إلى مريم البتول، لنتأمل سر اختيارها للمكان الشرقي؛ فقد آثرت مطلع الشمس لتستقبل أول خيوط النور وتستدفئ بأشعتها، في دلالةٍ لطيفة على أن خلوتها لم تكن انقطاعًا مريبًا عن أهلها، بل كانت تخرج مع إشراقة الصباح للعبادة، ثم تأوي إلى بيتها قبل غروب الشمس وحلول الظلام. وفي هذا المسلك الحكيم غاية الاحتراز وصونُ النفس، مراعاةً لطبيعتها الأنثوية التي أشار إليها القرآن بقوله :(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) (آل عمران: 36).

وهكذا يرسخ الإسلام قاعدةً ذهبية للمرأة المسلمة؛ فلها كامل الحق في الخروج لشهود الخير والعبادة في بيوت الله، لا يملك أحدٌ حجرها أو منعها ما لم يتعارض ذلك مع واجبٍ أسمى أو حقٍ أَوْلى. ويشهد لذلك الوصية النبوية الخالدة التي رواها ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ : «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»[16]، حتى بلغ من تعظيم الصحابة لهذا الأمر ما رواه ابن عمر عن امرأة أبيه عاتكة بنت زيد، إذ كانت تشهد صلاة الصبح والعشاء في المسجد، فقيل لها: لِمَ تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ فأجابت بيقين المؤمنة الواثقة بعدل الشرع: "وما يمنعه أن ينهاني؟"، قال: "يمنعه قول رسول الله ﷺ"لا تمنعوا إماء الله مساجد الله."[17].




ومن جهة أخرى فلها أن تخرج للتريض في الحدود التي يقرها الشرع [18] ، فالحفاظ على بدن المرأة بالرياضة ضرورة من الضرورات الشرعية ، ولولاها لتيبست المفاصل ولضعفت الدورة الدموية وهزلت العضلات ، مما يجعلها ضعيفة لا تتحمل الحمل ولا الولادة ولا الرضاعة سنتين كاملتين ، ولا طاعة زوجها ، ولا تحمل مسئوليات الأولاد ، وتلك الأمور هي عبادات لله تعالى لو أخلصت النية .

فمعنى أنها ابتبذت من أهلها مكانا شرقيا أنها مشت وسارت مسافة بعيدة عنهم ، في اتجاه المشرق لتتنسم الهواء ، وقد كان النبي ﷺ يعتني بالمرأة وبرياضتها ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ (فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ)[19].

قوله (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا)(17) قال ابن كثير أي: (استترت منهم وتوارت)[20] ، ما يعني أنها لم تخرج لتظهر نفسها وتتراءى للمارة ، بل قصدت بذلك أن تبلغ محرابا للعبادة وحسب ، فلما خرجت التزمت بالضوابط الشرعية لخروج المرأة ، وتميزت مريم عن نساء بني إسرائيل بحقها في ممارسة هذه الحرية للخروج لالتزامها بتلك الضوابط

---

[16]) رواه مسلم ج2 ص 441 رقم 668
[17]) رواه البخاري ج3 ص 420 رقم 849
[18]) انظر فتوى ابن باز : https://binbaz.org.sa/fatwas/7001
[19]) رواه أبو داود ج7 ص 140 رقم 2214 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج7 ص 329
[20]) تفسير ابن كثير ج5 ص 219

الشرعية ، فعَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ **لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُلْتُ لِعَمْرَةَ أَوَمُنِعْنَ قَالَتْ نَعَمْ)**[21].

وقد اتخذت حجابا دونهم كي يسترها وهي تصلي لله ، ما يعني أنها خرجت محتجبة ، وغير متعطرة حتى لا تلفت الأنظار لها ، يقول النبي ﷺ "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، **وليخرجن تفلات**" وقوله: "وليخرجن تفلات"، أي: تاركات للطيب[22].

ذكر الإمام النووي " أن خروج المرأة للمسجد مشروط بضوابط مأخوذة من الأحاديث، منها ألا تكون مطيّبة ولا متزينة، وألا تلبس ثياباً فاخرة أو خلاخل يُسمع صوتها، وألا تختلط بالرجال"[23] .وعضده بقول الرسول ﷺ (أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ)[24]

كما نقل الإمام الشوكاني "اتفاق العلماء على النهي عن التطيب عند الخروج للمسجد، مؤكداً أن الأمن من الفتنة هو المقصد الأساسي من تفضيل صلاة المرأة في بيتها واشتراط التفل عند خروجها"[25] .

وقد استنبط الإمام الطبري من سلوك السيدة مريم حينما اتخذت سترًا ومانعًا يحجبها عن أعين أهلها والناس لتنفرد بعبادة ربها وتخشع في صلاتها دون أن يراها الرجال مشروعية هذا الفعل ووجوبه ، فالقاعدة الأصولية . أن "شرع من قبلنا" إذا ورد في كتابنا مقرونًا بالثناء والمدح ولم يرد ما ينسخه، وقد أثنى الله على فعل مريم عليها السلام، مما يدل على مشروعية وفضل احتجاب المرأة عن أنظار الرجال حال عبادتها وصلاتها.

وقد اتفق الفقهاء على أن اتخاذ حائل أو جدار يفصل المرأة عن الرجال أثناء الصلاة هو أمر مطلوب شرعًا للستر والخشوع، وليس شرطًا لوجوب وصحة الصلاة؛ وقد تضافرت الأحاديث النبوية على حث المرأة على التحري لأكثر الأماكن سترًا وخفاءً عن أعين الرجال عند إقامة الصلاة، من ذلك ما يلي : –

- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صَلاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي بَيْتِهَا»[26]. والمخدع هو الخزانة أو الغرفة الصغيرة داخل البيت، مما يدل على أن كلما زاد احتجابها عن الأنظار كان أجرها أعظم .
- حديث الصلاة في أستر مكان . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَبَّ صَلَاةٍ تُصَلِّيهَا الْمَرْأَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ تُصَلِّيَ فِي أَشَدِّ مَكَانٍ مِنْ بَيْتِهَا ظُلْمَةً»[27]، وذلك لتمام الستر والانقطاع عن أنظار الناس .
- تخصيص أبواب وصفوف للنساء في المسجد .إذ ثبت في السنن أن النبي ﷺ أمر بتخصيص باب للنساء في مسجده حتى لا يختلطن بالرجال عند الدخول والخروج، كما جعل صفوف النساء في مؤخرة المسجد بعيدة عن

---

[21]) رواه البخاري ج3 ص 378 رقم 822
[22]) رواه ابن حبان في صحيحه ج5 ص 589 رقم 2211 وصححه الألباني : إصلاح المساجد ج1 ص 91 ، ومختصر إرواء الغليل ج1ص103 رقم 515 ورواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني صحيح أبي داود ج3 ص 108
[23]) شرح النووي على مسلم ج4 ص 162
[24]) رواه مسلم ج2 ص 448 رقم 675
[25]) نيل الأوطار ج3 ص 160
[26]) رواه أبو داودج2 ص 181 رقم 483 وابن خزيمة في صحيحه ج3 ص 95 رقم 1690 وصححه الألباني صحيح أبي داود ج3ص108
[27]) رواه ابن خزيمة في صحيحه

صفوف الرجال، وقال ﷺ : «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[28] ، وذلك لبعد آخر صفوف النساء عن رؤية الرجال.

كما بيّن **الإمام النووي** أن الحكمة من تفضيل آخر صفوف النساء على أولها في المسجد هي البعد عن مخالطة الرجال ورؤيتهم، وتجنب تعلق القلب عند رؤية حركاتهم وسماع أصواتهم[29].

قوله (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا*قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا)(17-18) والمراد بـ "الروح" ها هنا أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ وقد خُلِع عليه هذا الوصف الجليل لأنه رسول الوحي إلى الأنبياء، والوحي هو روح القلوب وحياة الأرواح، كما قال جل شأنه :(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الشورى 52)

وقد كانت رؤية مريم عليها السلام لجبريل في هيئة بشر سويّ كرامةً ربانيةً ساقها الله إليها؛ جزاءً لصدق إخلاصها، وتبتلها في محراب الطاعة، وانقطاعها عن حطام الدنيا، فأقبلت إليها الدنيا صاغرةً طائعة، وتنزل عليها الرزق من السماء بلا كدٍّ ولا سبب، مصداقاً لقوله تعالى(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)(آل عمران 37).

فقد اختيرت مريم لهذا الامتحان لأن الله اصطفاها على نساء العالمين ،قال تعالى (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) (آل عمران 43)، قال ابن كثير (وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمّها لها في "آل عمران"، وأنها نذرتها محررة، أي (تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك) ، (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) [آل عمران: 37] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل الدءوب، وكانت في كفالة زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم .

وهكذا تتجلى ألطاف الله الخفية في طيات الابتلاء؛ فقد امتحن الله مريم بموقفٍ أثار فزعها وروعها حين فاجأها رجل في خلوتها فاستجارت بالرحمن منه، فإذا بهذا الابتلاء الشديد ينقلب عين الرحمة والمنة، إذ أفضى إلى هبةٍ عظيمة، ورزقها الله غلاماً زكياً.

قوله (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) (19) هذا المقطع من السورة هو تمهيد لتحقق المعجزة ، وهذه المعجزة هي التي حيرت بني إسرائيل ، ولا تزال يتحير فيها النصارى ، لكن أهل الأسلام يعلمون الحق بوضوح وجلاء ، ذلك أن الله تعالى أراد أن يخلق عيسى بن مريم بلا أب ، فذلك ليس بعصي على الله ، بل هو من دلائل قدرته ، قال ابن كثير (خلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من

---

[28]) رواه مسلم ج2 ص 435 رقم 664

29) شرحه لصحيح مسلم ج4 ص 159

ذكر وأنثى ، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه)[30].

فقد اقتضت حكمة الله البالغة أن يتجلى لها جبريل في صورة إنسان؛ لتستأنس برؤيته وتطيق خطابه دون أن ينخلع قلبها من هول هيئته الملائكية، وليزفّ إليها بشرى الحمل الإلهي المعجز قبل وقوعه، فتكون على بصيرة من أمرها، وتدرك طهارة مسلكه؛ إذ لو وقع الحمل دون سابق إنذار وبشارة، لربما داخلها الشك أو ظنت أن مكروهاً أصابها في غفلة، وحاشاها ذلك، فقد برأها الله بقوله(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِين) (التحريم 12)

في قوله (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) (مريم: 20)، نطقت مريمُ عليها السلام بلسان الفطرة البشرية التي تألف السنن المعهودة، وتُرجع الأمور إلى أسبابها الظاهرة؛ إذ لم تتهيأ لها أسباب الإنجاب المعتادة، فنفت أن يكون قد سبق هذا الحمل لقاءٌ برجل، لا في يقظةٍ وإرادة، ولا في غفلةٍ أو إكراه، مستبعدةً كلا السبيلين.

ويشي قولها :(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) بواقعٍ اجتماعيٍّ مأزومٍ في ذلك العصر ـــوفي عصورٍ شتىـــ حيث يسهل الانزلاق في حمأة الفاحشة والمجاهرة بها في مجتمعاتٍ غابت عنها شريعة الله وعُطِّلت فيها حدوده. وهنا تجاوزت مريمُ حواجز الخجل المعتاد، فتحدثت بصراحةٍ جليةٍ وألفاظٍ كاشفةٍ لا مواربة فيها[31]؛ لأن المقام مقامُ تبرئةٍ واستفهامٍ عظيمٍ لا يجدي فيه التلميح، بل تقتضي فيه الحقيقةُ البيانَ الصريح. وكما أشار ابن جزيٍّ ، فإن البغيَّ هي "المرأة المجاهرة بالزنا"[32]، وفي ذكرها بعد نفي مسيس البشر "تخصيصٌ بعد تعميم؛ لأن المسيس يكون بنكاحٍ حلالٍ أو بسفاحٍ حرام."[33]

وهذه الصورة القائمة لذلك المجتمع تمنحنا فهمًا أعمق لدوافع اعتزال مريمَ أهلَها وانقطاعها في محراب العبادة؛ فقد كان مجتمعًا يشكو قحطَ الرجال الصالحين القادرين على حمل أمانة الرسالة كما لمس ذلك زكريا عليه السلام، وفي المقابل لم تكن بعض نسائه يجدن غضاضةً في التردي في مستنقع البغاء.

وهكذا أقامت مريمُ حجةً منطقيةً على انتفاء الأسباب المادية، متسائلةً في دهشةٍ عن كيفية وقوع المسبَّب في غياب سببه. وهذا دأب العقل البشري حين يغفل عن حقيقة أن الله سبحانه هو خالق الأسباب ومُجريها، وأنه قادرٌ على أن يخلق النتائج بلا أسبابٍ أصلًا. وإنما أوجد الله الأسباب في هذا الكون لتكون ميدانًا للابتلاء ووسيلةً للتعبد؛ فيأخذ بها العبدُ امتثالًا لأمر ربه، دون أن يركن إليها أو يعتقد أنها الفاعلة بذاتها. فالتوحيد الخالص يقتضي السعي في الأسباب المشروعة مع تجريد القلب من التعلق بها، وتفويض الأمر كله إلى مسبب الأسباب سبحانه؛ وبذلك تكتمل حقيقة العبودية والاستعانة في قلب المؤمن.

---

[30]) تفسير ابن كثير ج5 ص 220 ومحاسن التأويل للقاسمي
[31]) في ظلال القرآن ج5 ص 94
[32]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 972
[33]) البحر المحيط ج8 ص 21

في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: 21] أي أن الإيجاد من العدم لا يحتاج في قدرة الله إلى أسباب ، وإنما هو مجرد كن فيكون ، وذلك على الله يسير ، فعن أنس جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأل عن العزل فقال : (لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها ولدا وليخلقن الله نفسا هو خالقها)[34] ، بهذا تتجلّى طلاقة القدرة الإلهية التي لا تُقيّدها الأسباب ولا تُعجزها السنن؛ فالإيجاد من العدم في ميزان الربوبية لا يفتقر إلى مقدمات، بل هو أمرٌ نافذٌ بين الكاف والنون: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وذلك على الله يسيرٌ هيّن. وقد أبان النبي ﷺ هذه الحقيقة الراسخة حين سُئل عن العزل، فقال: «لو أنَّ الماءَ الذي يكونُ منه الولدُ أهرقْتَهُ على صخرةٍ؛ لأخرجَ اللهُ منها ولدًا، وليخلُقنَّ اللهُ نفسًا هو خالقُها)[35].

وهنا يبرز تساؤلٌ تأملي: ما دامت القدرة الإلهية نافذةً بلا أسباب، فلِمَ أجرى الله سنة التناسل عبر اقتران الرجل بالمرأة؟

إن الحكمة البالغة في ذلك تتوزع على ركنين عظيمين:-

أولهما: **شهود المعجزة الإلهية في الذات الإنسانية** : أراد الله للإنسان أن يرى آية الخلق ماثلةً في كينونته، وأن يستشعر عجزه أمام مشيئة الله حتى وهو يباشر السبب بنفسه؛ فما الإنسان في عملية الإنجاب إلا أداةٌ مسخَّرة، لا يملك من أمر التكوين شيئًا، ولا يملك ردَّ ما قدّره الله ولو حاول المنع .

ويُجلّي هذا المعنى ما رواه جابر رضي الله عنه: أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: «إن لي جاريةً هي خادمُنا وسانيتُنا، وأنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تحمل»، فقال ﷺ : «اعزِلْ عنها إن شئتَ؛ فإنه **سيأتيها ما قُدِّر لها**». فلبث الرجل ثم أتاه فقال: «إن الجارية قد حبلت»، فقال ﷺ : «قد أخبرتُكَ أنه سيأتيها ما قُدِّر لها»[36]. فجعل الله الاقتران سببًا ظاهرًا ليتفكر المرء في إعجاز الخلق، ويدرك أن تمام الأمر بيد الخالق وحده.

وثانيهما: **الابتلاء وبناء العمران البشري** : فقد أودع الله هذه الفطرة في النفس لتكون محرّكًا للسعي وميدانًا للابتلاء؛ فلولا هذه الرغبة الفطرية لما تحمّل الإنسان مشاقَّ الحياة وأعباءها. فمن أجل إشباعها في إطارها المشروع، يجدُّ المرء في طلب العلم، ويكدح في العمل، ويجمع المال ويدّخره؛ ليشيّد بيت الزوجية، ويؤدي المهر، وينفق على أهله. فإذا ما نال بغيته، أعقبتها مسؤولياتٌ جسام من رعاية الأبناء، والإنفاق عليهم، وتهذيب نفوسهم وتقويم سلوكهم، حتى يشتد عود الابن ويغدو بدوره ربانًا لأسرةٍ جديدة؛ وبهذا تتصل حلقات الحياة، ويستمر عمران الأرض على سنة الابتلاء والعمل.

فقوله (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) في بيان هذه الآية الكريمة، يوضح الحافظ ابن كثير أن معنى جعله "آية" هو: «أي ولنجعل خلقه –والحالة هذه– دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق؛ فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى».

---

[34]) رواه مالك في الموطأ ج2 ص 467 رقم 547

35) رواه مالك في الموطأ ج2 ص 467 رقم 547 - ورواه أحمد ، وابن أبي عاصم ، والضياء عن ثمامة بن عبد الله بن أنس عن جده) انظر تخريج السيوطي في جامع الأحاديث ج18 ص 87 وحسنه الألباني : السلسلة الصحيحة ج3 ص 321 رقم 1333

[36]) رواه مسلم ج7ص315 رقم 2606

وأما كونه "رحمة" من الله بعباده، فيفسره ابن كثير بقوله: «بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره، في طفوليته وكهولته؛ بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، والشركاء والنظراء، والأضداد والأنداد).[37]

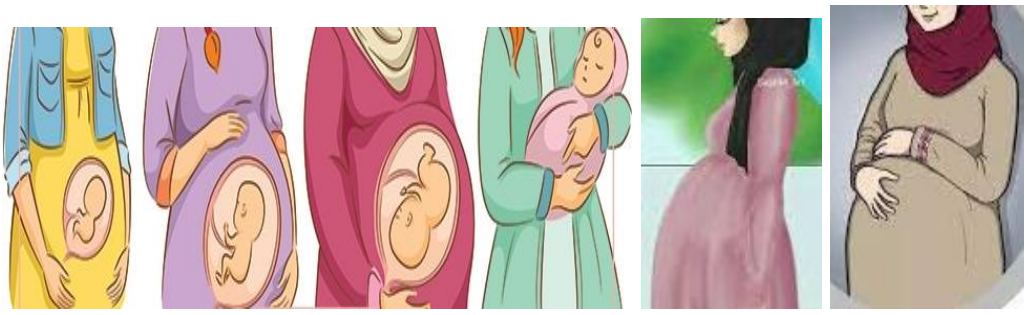
وعند التأمل في هذا النص القرآني البديع، نجد أنه ينطوي –والله أعلم– على ثلاث دلالات جوهرية مترابطة:

أولاً: **البرهان العملي على كمال القدرة الإلهية**:لم تأتِ الآية لتقرر قدرة الله بصورة نظرية مجردة، بل قدمتها في برهان عملي تطبيقي مشهود كما أشار ابن كثير. فالله الذي سنّ قانون الزوجية في الكون بقوله :﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ الذاريات: 49]، هو القادر على خرق هذا القانون متى شاء، ليؤكد أنه سبحانه لا تحده الأسباب، بل هو مسببها، مصداقاً لقوله :﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ يس: 82.[

ثانياً: **إبطال الغلو والرهبانية المبتدعة**: تحمل هذه المعجزة إبطالاً صريحاً لبدعة الرهبانية والانقطاع عن سنن الحياة التي ابتدعها بعض أهل الكتاب من أتباع التوراة والإنجيل، كما أسلفنا في مقدمة هذا المبحث. وقد ذمّ الله هذا الغلو في كتابه فقال :﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ الحديد: 27]؛ فكون عيسى عليه السلام "رحمة" يدعو إلى التوحيد الخالص والاعتدال، ينقض مسالك التشدد التي انحرف إليها أتباعه من بعده.

ثالثاً: **إقامة الحجة الدامغة على قتلة الأنبياء**: إن خلق عيسى عليه السلام من غير أب، ثم استنطاقه في المهد بقوله :﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ مريم: 30]، لم يكن مجرد حدث خارق للعادة، بل كان حجة بالغة لإلجام المعاندين من بني إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل وقتلهم، لعلهم يرتدعون عن غيهم. غير أن جحودهم أبى إلا أن يكرر السيرة الآثمة نفسها بمحاولة قتله وصلبه، فأنقذه الله منهم، كما قال تعالى :﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ... بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ النساء: 157–158.[

قوله (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) (22) دليل على أن مريم عليها السلام مرت بفترة حمل طبيعية ، وقد ظهر علي مريم علامات الحمل ، فابتعدت به إلى مكان بعيد عن أهلها حتى لا يلاحظوا حملها ، وهو الأمر الذي ينفي عن عيسى صفة الألوهية ، إذ كيف يكون إلها وقد مر بمراحل وأطوار نمو الجنين في بطن أمه؟



وقد خجلت مريم من شكل بطنها ، فابتعدت به إلى مكان بعيد حتى لا يراها أحد فيرمها بالفحشاء بغير حق .

قوله (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) (23) رحمها الله تعالى بأن جاءها مخاض الولادة سريعا دون انتظار لمدة طويلة ،لكنها خافت أن يقذفها قومها بالفاحشة وقد أوشكت على

[37]) البداية والنهاية ج 2 ص 77

الولادة ، فتمنت الموت قبل أن ينالها ما تخاف منه ، لأن سمعة المرأة وشرفها أثمن ما تملك بعد الإيمان بالله تعالى ، بل إن ذلك لدليل تصديقها وإيمانها بكتابه .

والسنة في شرعنا تنهى عن تمني الموت على كل حال ، ولذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ **فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**)[38]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ** ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا)[39]

قال الحافظ (هذا يدل على أن **النهى عن تمنى الموت مقيد بما إذا لم يكن على هذه الصيغة**، لأن في التمنى المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المختوم، وفي هذه الصورة المأمور بها نوع تفويض وتسليم للقضاء، وقوله: فإن كان لا بد إلخ ، فيه ما يصرف عن حقيقته من الوجوب والاستحباب، ويدل على أنه لمطلق الإذن لأن الأمر بعد الحظر لا يبقى على حقيقته)[40].

وقد تساءل العلماء عن كيفية الجمع بين فعل مريم عليها السلام وبين الأحاديث التي تنهى عن ذلك ، فأجابوا عن ذلك بعدة أوجه :-

- الفرق بين ضرر الدنيا وفتنة الدين .بيّن العلماء في الموسوعة الفقهية بالدرر السنية أن النهي يختص بمن يتمنى الموت لضيق دنيوي أو مرض أو فقر، أما إذا خاف المسلم على دينه من الفتنة فيجوز له تمني الموت[41].
- تمني صفة الوفاة لا الموت المطلق .أوضح الشيخ ابن عثيمين أن مريم لم تطلب الموت في تلك اللحظة تحديدًا، بل تمنت لو كانت قد ماتت قبل حدوث هذه الفتنة ولو عاشت قبلها ألف سنة، فالمقصود هو السلامة من الفتنة عند الموت.

قوله (فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) (24) إنَّ نداءَ عيسى عليه السلام لأمِّه من تحتها بألَّا تحزن يُعدُّ توصيفًا دقيقًا للحالة النفسية التي تمرُّ بها المرأةُ بعد الوضع (النُّفَساء)؛ إذ تعاني من إجهاد الولادة الشديد، فيصيبها الحزن والوهن نتيجة استنفاد طاقتها الجسدية بعد وضع وليدها.

قال جمهور المفسرين (السريّ : النهر الصغير)[42]، كناية عن الولد الذي تلده فينزل من تحتها، قال ابن عباس والحسن هو (عيسى)[43].

ويدلُّ السياق القرآني على أنَّ عيسى عليه السلام كان سببًا في تسلية أمِّه وتخفيف حزنها، وهذا أمرٌ يوافق الفطرة الإنسانية؛ فلو تأمَّلت كلُّ أمٍّ في وليدها وتفرَّست في ملامحه لترى معجزة الله تعالى في خلقه وهو يخرج منها كائنًا حيًّا، لكان ذلك من أعظم أسباب التسرية عنها، ولَما وجدت سبيلًا لليأس أو لما يُعرف باكتئاب ما بعد الولادة.

---

[38]) رواه البخاري ج19 ص 432 رقم 5874
[39]) رواه مسلم ج13 ص 181 رقم 4843
[40]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج5 ص 288 رقم 1614
[41]) الموسوعة الفقهية : الدرر السنية :
https://dorar.net/feqhia/1893/المطلب-الثالث-حكم-الأنين-وتمني-الموت
[42]) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 449
[43]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 256

وهكذا تكون آلام الحمل والوضع ابتلاءً من الله تعالى لكل امرأة؛ فإن هي احتسبت الأجر عند الله صبرها ورضيها، سُرِّيَ عنها وفرحت بكونها سببًا في خروج نَفْسٍ جديدةٍ توحِّد الله تعالى وتشكره، فجعل الله تعالى عيسى بن مريم سببا في التسرية عنها ، وفرحها بعد الغم.

قوله (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) (25) حضها على الحركة وعدم الاستلام لألم الولادة ، وقد ثبت علميا أن **الحركة بعد الولادة سبب لتحسن نفسية المرأة ويساعد على سرعة الاستشفاء** ، إذ كان من الممكن أن يتساقط هذا الرطب بدون جهد منها ، ولكن الله أمرها بأن تلتمس الأسباب لتحصل على الرزق بعد شيء من الحركة والعمل ، وتلك هي سنة الله تعالى ، فلو جاء الرزق بلا سعي وعمل لما كانت الدنيا محلا للابتلاء والاختبار ، لكنه يأتي بغير حساب إذا ما تحققت أركان التقوى وحسب ، قال بن العربي (**وَلَوْ شَاءَ أَحْنَى الْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا إلَيْهَا وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ**)[44].



وهكذا يتساقط عليها الرطب من التمر بمجرد هزها لجذع النخلة ، وأي قوة تملكها مريم وهي نفساء لتهز جزع النخلة ، أتدرون ما هو جزع النخلة ؟ قال ابن عثيمين (انظر لهذه الكرامة المرأة مرأة نفساء والمرأة ضعيفة تؤمر بأن تهز بجذع النخلة ، والهز بالجذع لا يحرك النخلة لكنها كرامة لها تحركت النخلة ثم لما تحركت تساقط الرطب رطبا جنيا لم يتأثر بسقوطه على الأرض مع أن الغالب أن الرطب إذا سقط من أعلى فإنه يفسد يتمزق بسقوطه على الأرض لكن هذا الرطب الذي تساقط على مريم تساقط عليها **رطبا جنيا لم يتأثر بالأرض ولم يتمزق بها**)[45].

قوله (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) التفات إلى العناية البدنية بعد العناية النفسية ، ليكتمل الاستشفاء من الولادة

كما روعي الالتفات إلى العناية النفسية مرة أخرى بعد الاستشفاء البدني ، بقوله "وقري عيناً" لأن قرّة العين تلزم قوة القلب والتسلي من الهموم والأحزان)[46]، فالمعالجة النفسية تسبق وتتخلل وتلحق أي عمل

والمقصود بالعناية النفسية أن يظل القلب معلقاً بالله، عاقداً عليه الأمل، مستشرفاً بشرياته التي تتنزل عليه من كل جانب. وقد قيل في تفسيرها: أي (طيبي نفساً وافرحي برؤية الولد المبارك الموهوب لكِ)[47]. فالعناية الإلهية لا تفارق المؤمن في أحلك ظروفه، وهو ما يوجب عليه تمام اليقين وحسن التوكل.

قوله (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)(27) إرشاد إلهي لمريم عليها السلام في هذا الموطن العصيب بالتزام الصمت وحسب ، وهي أمامها مسالك شتى للدفاع عن براءتها؛ فكان بوسعها أن تسرد على قومها حقيقة ما جرى دون زيادة أو نقصان، أو أن تلتمس مخرجاً ظاهرياً فتزعم أنها عثرت على هذا الوليد لقيطاً في قارعة الطريق، أو غير ذلك من الذرائع التي يمليها منطق البشر في مواقف الاتهام.

---

[44]) أحكام القرآن لابن العربي ج5 ص 345
[45] فتاوى نور على الدرب لابن عثيمين ج34 ص 6: مؤسسة الشيخ بن عثيمين الخيرية
[46]) تفسير النيسابوري ج5 ص 230
[47]) الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ج3 ص 470

غير أن التدبير الإلهي اصطفى لها سبيلاً مغايراً يعلو على مألوف الناس؛ إذ أمرها بالاعتصام بالصمت والإمساك عن الكلام، وهو مسلكٌ يبدو في ظاهره مثيراً للريبة ومؤججاً للظنون، **فالقرائن الظاهرة تشي بأن الغلام ولدها،** وقومها يعلمون يقيناً أنها العذراء البتول المنقطعة للعبادة في المحراب، ولم يمسسها بشر، فمن أين لها هذا الغلام؟ كما أن سردها لحقيقة المعجزة بلسانها لن يجد آذاناً مصغية ولا قلوباً مصدقة؛ فكان هذا الموقف قمة الابتلاء والتمحيص.

ومن هنا تتجلى حكمة الأمر الإلهي بالإمساك عن الكلام؛ إذ يذكر المفسرون في معنى" الصوم "هنا أن الصيام في أصل اللغة هو الإمساك، وقد كان من شرائع من قبلنا أن يتعبدوا بالصمت والامتناع عن الحديث كما يمتنعون عن الطعام والشراب. قال ابن عباس رضي الله عنهما : "صوماً" : أي "صمتاً" ، وأوضح الطبري وابن كثير أن نذر الصمت كان قربةً معروفة في شريعتهم، فإذا رأى الناس أحدهم صامتاً عن الكلام علموا أنه في عبادة فلم يتعرضوا له بالأذى أو الجدال.

ويحمل هذا التوجيه الرباني دلالةً تربويةً بالغة الأهمية؛ وهي أن المؤمن إذا وقع في موقف تشتد فيه التهم، وتتكالب عليه القرائن الظاهرة، ولم يجد في جداله العقلي حجةً تقنع الخصوم، فإن **الصمت حكيم والتفويض إلى الله هما أبلغ رد،** لأن الكلام في غير أوانه لا يزيد الشبهة إلا اشتعالاً، ولا يورث صاحبه إلا استهزاء المكذبين. وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) [48] .

لقد كان صمت مريم عليها السلام توطئةً ربانيةً مهيبة لتنطق الحجة البالغة في أوانها المقدر، وليتولى الله الدفاع عن أوليائه بمعجزةٍ تخرس الألسنة؛ قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)(38) ، فامتثلت أمر ربها، ولاذت بالصمت المطبق، لتفسح المجال لقدرة الله أن تتكلم على لسان الرضيع في المهد، فتكون الحجة أدامغ، والبرهان أسطع.

قوله (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)(28) هنا لما طال صمتها فُتنت به ، إذ رماها أهلها بفرية (الزنا) وهي بريئة منها ، فزاد بلاؤها ،وظلت ملتزمة الصمت ، وهنا يأتي دور الثبات على الإيمان ، فيثبتها الله تعالى ولا تنطق بكلمة كما أمرها .

قوله (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)(28) فكان صمتها سببا لأن يدافعوا عنها بتذكر حسناتها وعباداتها ، فقارنوها بعبادة (هارون)، فهي أخته في الدين والأخلاق .

فعن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران قال فقالوا أرأيت ما تقرءون يا أخت هارون ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت لرسول الله ﷺ فقال ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم)[49].

وذكروها بأصلها الشريف من حيث الأب والأم ، فكلاهما معروف بالخير ، وهكذا يتحدث ماضي المرء ليدافعه عنه في مثل تلك المواقف ، الأمر الذي أعطاها فسحة من الوقت ، ومهَّد لها لتبدأ أول خطوة في الدفاع عن نفسها (بالإشارة إلى وليدها) .

---

[48]) رواه البخاري ج18 ص 437 رقم 5559

[49]) رواه أحمد في مسنده ج4 ص 252 رقم 18226 ، تعليق شعيب : إسناده صحيح على شرط مسلم

فأحيانا يكون الصمت أداة استراتيجية في الإقناع وأداة نفسية قوية تُحفّز التفكير العميق، وتنقل الثقة، وتدفع الطرف الآخر لملء الفراغ بالمعلومات أو التنازلات .فعلى عكس الاعتقاد الشائع بأن الإقناع يعتمد على كثرة الكلام، يمنح الصمت المدروس مساحة ذهنية تُعزّز من ثقل الكلمات التي تسبقه أو تليه.

إذ يعكس الصمت الهادئ عدم الحاجة إلى تبرير الموقف أو الاستعجال في الدفاع عن الفكرة. يفسر المستمع هذا الهدوء على أنه دليل على القوة واليقين، مما يرفع من مصداقية المتحدث ، لكن يجب تجنب الأثر العكسي للصمت الطويل من خلال لغة الجسد ، لأن التجاهل التام أو الصمت العدائي يولّد النفور ويُعد أسلوباً سلبياً يضر بالعلاقات. بل يجب أن يكون الصمت مصحوباً بلغة جسد منفتحة وتواصل بصري مريح.

قوله (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا*قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (29-30) ؛ نجد أن مريم عليها السلام لما لمست من قومها حيادًا ورغبةً صادقة في تبين الحقيقة، أشارت إلى رضيعها باعتباره دليل براءتها وحجتها القاطعة ردًا على تساؤلهم. فتعجب القوم من إشارتها، وبادروا بالسؤال مستفهمين بإنصاف وتجرد بعيدًا عن السخرية أو التهكم، حتى في أمر يبدو خارقًا للمألوف، فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

عندئذٍ تجلّت المعجزة الإلهية؛ إذ أنطق الله الرضيع في مهده ليتولى الدفاع عن أمه وتبرئتها بدلًا عنها. وفي هذا المشهد درس عظيم بأن عناية الله لا تتخلى عن المؤمن في أشد أزماته، ما دام واثقًا بربه ومعتصمًا به مهما اشتد الحصار، وكثرت الأقاويل، وانقطعت به الأسباب الأرضية فلم يبقَ له إلا رب الأرباب.

لقد جاءت هذه المعجزة برهانًا ساطعًا على طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والإيجاد من العدم، وحجةً تبطل الغلو والتشدد في العبادة المفضي إلى الرهبنة، كما كانت شاهدًا على بني إسرائيل الذين أسرفوا في قتل الأنبياء. ويبقى التساؤل قائمًا عما ستؤول إليه الأحداث بعد هذه المعجزة الباهرة؛ فهل سيمضي القوم في غيّهم ويحاولون قتل المسيح عليه السلام كما فعلوا مع من سبقه من الأنبياء، أم أنهم سيتتبعون أمره ويرقبون شأنه؟

قال تعالى (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (30) (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) (31) (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) (32) (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) (33)

هنا تحدث عيسى عن نفسه ، ودار حديثه تعريفا عن نفسه بعدة أمور كالتالي :-

أولا : قوله (إني عبد الله) هذا إقرار منه بأنه عبد الله وليس إلها كما زعم النصارى بعد ذلك ، فلو أن بني إسرائيل ضلوا بقتل الأنبياء ، فإن النصارى ضلوا بتأليه المسيح عيسى بن مريم ، وقد صدر هذا القول ليس لنفي هذه الشبهة فهي شبهة لاحقة لقوله ، وإنما لأن الرسل جميعا جاءوا بتلك الرسالة ، ولأجل إعلان كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، فكل نبي قال لقومه (اعبدوا الله) ، وإنما جاءت دعوة المسيح لقومه (إني عبد الله) من باب الاحتراز وإقامة الحجة عليهم حتى لا يفتنوا به وقد نطق في المهد .

ثانيا : قوله (آتاني الكتاب) لينتبهوا إلى أن الله آتاه شريعة جديدة مصدقة للتوراة في الأصول ، وتختلف عنها في الفروع وبعض الأحكام العملية نظرا تبدل الزمان والأشخاص والهيئات ، لاسيما وقد طال التوراة كثير من التحريف والتأويل بحسب الأهواء ، يقول النبي ﷺ (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ)[50].

ثالثا : قوله (وجعلني نبيا) تأكيد على أنه مرسل من ربه لقومه ، كي يتبعوه منذ اللحظة التي كلمهم فيها وهو في المهد ، قال الحسن (أنه كان في حال كلامه لهم في المهد نبياً كامل العقل ولذلك كانت له هذه المعجزة) [51]، وكيف لا يكون نبيا بعد أن تكلم في المهد ، فقد لقنه الله ما يتكلم به ، وقد صدقه الناس ،ولم يبق إلا أن يتبعوه ، فكان ذلك حسرة شديدة لنبي إسرائيل الذين قتلوا الأنبياء من قبل ، فقد عجزوا اليوم عن تكذيب المسيح بن مريم وعن قتله ، وقد صدقه الناس وهو في المهد .

رابعا : قوله (وجعلني مباركا أين ما كنت) يتجلى أهمية وجود المسلم المثمر ، وأثره الإيجابي على الوجود كله ، فهو يحمل الخير للناس ، وتعم الأرض بركة بوجوده ، فالبركة في أصلها اللغوي والشرعي تعني ثبوت الخير، ونماءه، ودوامه، وعموم نفعه؛ وقد تضافرت أقوال السلف وأئمة التفسير في الكشف عن كنوز هذه الآية الكريمة :-

فعن مجاهد قال (معلما للخير)[52]، روايةٍ أخرى عن مجاهد قال: «نفّاعًا للناس حيثما توجّه»؛ فلا يقتصر خيره على نفسه، بل يفيض علمًا وهدايةً على كل من حوله.

وعن ابن عباس (معلما مؤدبا)[53]، فالمسلم تحل معه البركة أينما ذهب ، **لأنه لابد وأن يترك المكان أفضل مما كان** ، ولذلك أثر عن جبريل عليه السلام أنه كان ينبت بكل خطوة يخطوها الزرع ، وهكذا يكون المسلم مصلحا ولا يكتفي بصلاح نفسه ، بل يسعي لإصلاح كل شيء من حوله ، من هنا تولد فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويعضد هذا المعنى تفسير التستري لمعنى البركة بقوله (يعني آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأرشد الضال ، وأنصر المظلوم ، وأغيث الملهوف)[54]، وهو ما يوافق ما نقله الإمام الطبري عن وهيب بن الورد من أن الفقهاء اجتمعوا على أن بركة العبد تكمن في قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما حلّ.

ولشرف هذه المنزلة وعظيم أثرها في إصلاح الكون، استحق معلم الخير أن يحتفي به الوجود كله؛ مصداقًا لقول رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ)[55].

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ تلك العبادةُ العُظمى، والصلةُ الوُثقى التي تشدُّ أزرَ العبد بخالقه، وترتقي بروحه في معارج القُرب واليقين؛ إذ لا خير في دينٍ خلا من ركوعٍ يُذلُّ به الجبين للواحد القهّار، وسجودٍ يعلن به العبدُ غايةَ الخضوع والافتقار. فبالصلاة يناجي العبدُ مولاه، ويلهج بتمجيده والثناء عليه وشكره، ويبثُّ بين يديه

---

[50]) رواه البخاري ج11 ص 294 رقم 3216
[51]) النكت والعيون ج3 ص 18
[52]) التبويت الموضوعي للأحاديث ج1 ص 15631 ، ورواه مالك في الموطأ عن بن عيينة ج1 ص 2
[53]) مستخرج الطوسي ج1 ص 52
[54]) تفسير التستري ج1 ص 311
[55]) رواه الترمذي ج9 ص 299 رقم 2609 صححه الألباني في صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 214

شكواه، ويُظهر له فاقتَه وعجزَه وحاجتَه. ولولا هذه الشعيرةُ الجليلة لافتقد الإنسانُ أُنسَ المعية الإلهية، واستشعارَ الرعاية الربانية والحفظ الإلهي.

وقد أشار العلماء إلى أن عطف الصلاة على المباركة في الآية يدلُّ على أن بركة العبد في مجتمعه لا تكتمل إلا بصلاح صلته بربه؛ يقول الإمام الرازي في تفسيره: "إنما خُصَّت الصلاة والزكاة بالذكر؛ لأن الصلاة تعظيمٌ لأمر الله، والزكاة شفقةٌ على خلق الله، وهما جماعُ السعادة والكمال". كما يذكر ابن عاشور أن التعبير بـ (أوصاني) يشير إلى عهدٍ إلهيٍّ عظيم أُلقي على عاتقه منذ نعومة أظفاره؛ ليظلَّ محرابُ الصلاة ملاذَه الآمن الذي يستروح فيه من عناء الدعوة ومكابدة الحياة.

وهكذا كان نبي الله عيسى –عليه السلام– يجد في الصلاة سَكَنَ نفسه، وبهجةَ روحه، وتحقيقَ مقام العبودية الخالصة لله. وهو ذاتُ الشعور الفيّاض الذي كان يغمر قلبَ نبينا محمد ﷺ؛ فعن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجلٌ من خزاعة: ليتني صليتُ فاسترحت، فكأنهم عابوا عليه ذلك، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا»[56]. وقد قال أهل العلم في شرح هذا الحديث: "كان اشتغالُه ﷺ بالصلاة راحةً له؛ فإنه كان يَعُدُّ غيرَها من الأعمال الدنيوية تعباً، فكان يستريح بالصلاة لما فيها من لذةِ مناجاة الله تعالى والأُنس بذكره"[57].

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ إذا كانت الصلاةُ طُهرةً للروح ومعراجاً لتزكية النفس، فإن الزكاةَ طُهرةٌ للبدن ونماءٌ للمال وتطهيرٌ له من أدران الشُّحِ والأثرة؛ مصداقاً لقول النبي ﷺ: «دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ»[58].

وقد توقَّف المفسرون أمام إيتاء عيسى –عليه السلام– للزكاة وهو في المهد صبيّاً لا مال له، فاستنبطوا من ذلك لطائف بديعة؛ يقول الإمام القرطبي وابن كثير: "المقصود بالزكاة هنا أحد أمرين: إما أنها تكليفٌ مؤجَّلٌ متى ملك المال وبلغ سنَّ التكليف، وإما أن الزكاة أُريد بها تطهيرُ النفس وتزكيتُها من الذنوب والأخلاق الرذيلة، والقيامُ بحقوق العباد". ويضيف الإمام السعدي معنىً جامعاً بقوله: "أوصاني بالزكاة، وهي الإحسان إلى الخلق بالمال، أو بالعلم، أو بالنفع المتعدي".

وبذلك يتسع مفهوم الزكاة في حق عيسى –عليه السلام– ليشمل معناها المادي والمعنوي معاً؛ فهي الإعانةُ الشاملة لكل محتاج، واليدُ الحانية التي تمتدُّ بالخير للفقراء والمساكين وذوي الحاجات، كما تمتدُّ بالهداية والنصح للضالين والحيارى غير المهتدين. وهذا ما يؤكده الهدي النبوي الشريف في توسيع دائرة البذل والعطاء؛ إذ يقول رسول الله ﷺ «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ»[59]، ويقول ﷺ في إرساء قيمة العطاء المعنوي: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»[60]..

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ (32) في هذا الملمح القرآني البليغ إشارة جليلة إلى عظم منزلة بر الوالدين، وضرورة غرس هذا الخلق الرفيع في نفوس النشء منذ نعومة أظفارهم؛ إذ يُعدّ البر أولى مدارك حسن الخلق، وأصدق ترجمانٍ لصلاح العلاقة بين العبد وربه، وقد قرنه الله سبحانه بعبادته في غير موضع من كتابه العزيز. ومن لم يحسن الوفاء لأقرب

---

[56]) رواه أبو داود ج13 ص 165 رقم 4333 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1386 رقم 13851
[57]) ابن الأثير : النهاية في غريب الأثر ج2 ص 658
[58]) رواه أبو داود في المراسيل ورواه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن جماعة من الصحابة مرفوعا متصلا والمرسل أشبه عن أبي أمامة ، وقال الألباني حسن لغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج1 ص 182 رقم 744
[59]) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674
[60]) رواه البخاري ج18 ص 444 حديث الباب

الناس إليه وأعظمهم فضلًا عليه، فلن يُرجى منه صلاح في الشأن العام؛ لذا كان بر الوالدين توطئةً ضرورية لتزكية النفس، وتأهيلًا للمرء كي يتصدر لخدمة الناس، ويتدرج في سياستهم بالعدل والرحمة لحملهم على شريعة الله وهدايته.

وقد جاء التعبير القرآني على لسان عيسى عليه السلام بصيغة الإفراد في قوله: ﴿بِوَالِدَتِي﴾، بخلاف ما ورد في شأن يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: 14]؛ وذلك لتقرير حقيقةٍ عقديةٍ وتاريخيةٍ قاطعة، وهي أنه عليه السلام خُلق بقدرة الله من أمٍّ طاهرةٍ بتولٍ دون أب، وأن الصدّيقة مريم عليها السلام قد حملته وولدته من رحمها، في دحضٍ صريحٍ لشبهات الغالين والمبطلين.

كما أشار أهل العلم والتفسير إلى لطائف بلاغية وعقدية بديعة في هذه الآية الكريمة، تزيد المعنى رسوخًا وعمقًا:

- **الإعجاز اللغوي والدلالي في لفظ (بَرًّا)**: (لفت المفسرون كالزمخشري وابن عاشور إلى أن القرآن لم يقل (بارًّا بوالدتي) بصيغة اسم الفاعل، بل عدل إلى الصفة المشبهة (بَرًّا)؛ للمبالغة في الوصف وتأكيد الثبات والدوام، فكأنه عليه السلام قد تجسد فيه البر حتى صار سجيةً ملازمةً له في كل أحواله، لا مجرد فعلٍ عارض.
- **الرد على شبهة الألوهية والبنوّة**: نبّه الإمام القرطبي وابن كثير إلى أن إقرار عيسى عليه السلام بالعبودية لله أولًا في قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ثم إردافه ببره بوالدته، فيه أبلغ ردٍّ على النصارى الذين ادعوا له الألوهية أو جعلوا أمه إلهة؛ إذ الإله المعبود لا يكون عبدًا مأمورًا، ولا ولدًا محتاجًا إلى أمٍّ ترضعه وترعاه، ولا مكلّفًا ببرها والإحسان إليها.
- **سرّ التقديم والتأخير في السياق القصصي**: قدّم القرآن الكريم في سورة مريم نموذجي يحيى وعيسى عليهما السلام في كمال البر بوالديهما، قبل أن يسوق قصة الخليل إبراهيم عليه السلام وموقفه من أبيه آزر، وما آل إليه أمره من اعتزال أبيه وقومه؛ وذلك ليرسم للمؤمنين منهجًا متكاملًا يفرق بدقة بين مقامين: مقام البر والإحسان والصحبة بالمعروف مع الوالدين الصالحين، ومقام المفارقة والاعتزال الحسن حين يشتد أذى الوالدين في الدين، ويصبح الهجر والاعتزال سبيلًا وحيدًا للنجاة بالعقيدة وصيانة التوحيد، مع بقاء أدب الخطاب ولين الجانب كما فعل الخليل عليه السلام مع أبيه.

ثامنا : قوله (ولم يجعلني جبارا شقيا) الجبار غير منضبط السلوك مع الناس ، والشقي هو من جعل الدنيا همه ، وخلافهما الرحيم مع الناس والبار بهم وأول الناس ببره الأقربين ، والزاهد في الدنيا الذي يضع الآخرة نصب عينيه ،

إذ ينفي نبي الله عيسى عليه السلام عن نفسه هاتين الصفتين الذميمتين؛ الجبروت والشقاء، ليرسم بذلك معالم الكمال الإنساني والسمو الأخلاقي في أبهى صوره.

فنفي الجبروت يعني حسن الخلق: فالجبار هو المتكبر الطاغي الذي يبطش بالناس، ويتصرف معهم دون وازع من خلق أو رحمة، فيشبه في اندفاعه سلوك العجماء التي لا تزن تصرفاتها بميزان العقل. وقد بيّن الإمام الطبري أن الجبار هو المستكبر عن طاعة الله وطاعة والدته، المتعظم على عباد الله. وعلى النقيض من ذلك، فإن من عصمه الله من الجبروت يكون رقيق الجانب، محترزاً في معاملته للخلق، رحيماً بهم، واصلاً لرحمه. وقد ربط النبي ﷺ بين صلة الرحم وبركة العمر والرزق بقوله: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[61].

معنى الشقاء في أقوال المفسرين: وقد أشار العلماء إلى أن اقتران "الشقي" بـ "الجبار" يحمل دلالات عميقة؛ فذكر ابن كثير أن الشقي هو العاق لوالديه، لأن العقوق يجلب الشقاء في الدنيا والآخرة. كما أوضح القرطبي والزمخشري أن الجبار شقي لا محالة؛ لأن كبره وبطشه يوردانه موارد الهلاك وسخط الله، فكل جبار شقي، وكل متواضع بارّ سعيد.

---

[61]) رواه البخاري ج7 ص 228 رقم 1925

والرحمة سر السعادة ويتحقق ذلك بالزهد في الدنيا : فنفي الشقاوة هنا يثبت نقيضها، وهو نيل السعادة الحقيقية التي تنبع من الرحمة الفطرية التي جبل الله عليها نبيه. وتتجلى هذه السعادة في انصراف القلب عن هموم الدنيا وزخارفها؛ فالشقي حقاً هو من استغرقته الدنيا وأسرته مطالبها. وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ**»[62]. وهذا برهان ساطع على تجرد عيسى عليه السلام من التعلق بالدنيا البتة؛ إذ إن أدنى التفات إليها يورث القلب كدراً وشقاءً، ومن ذاق شيئاً من فتنتها ناله نصيب وافر من العناء.

تاسعا : قوله (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) في ختام هذه المناجاة النورانية التي أنطق الله بها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في مهده، يُسدل الستار بإعلان الأمان الإلهي الشامل الذي يكتنفه في أشدّ مواطن الوحشة والرهبة على الإنسان: ساعةَ الولادة ومفارقة المألوف، وساعةَ الموت ومعاينة الآخرة، وساعةَ البعث والقيام لرب العالمين.

لطيفة التغاير بين صيغة الغائب وصيغة المتكلم:

وقد لفت أهل العلم والبلاغة النظر إلى سرٍّ بديع في هذا الموضع؛ إذ وردت هذه الآية في حق يحيى عليه السلام بصيغة الغائب: "وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا"، بينما جاءت هنا على لسان عيسى عليه السلام بصيغة المتكلم: "وَالسَّلَامُ عَلَيَّ...". ولهذا العدول مقاصد جليلة، منها:

إثبات البشرية ونفي الألوهية: أراد عيسى عليه السلام بشهادته الصريحة على نفسه أن يقطع دابر الغلوّ في شأنه؛ فهو عبدٌ مربوب تجري عليه سنن الكون من ولادةٍ وموتٍ وبعثٍ كسائر البشر، ومن كانت هذه حاله فأنّى تُنسب إليه الألوهية أو يُتخذ إلهًا من دون الله؟!

تبرئة الساحة في مهد الصبا: ولما كان يحيى عليه السلام لم يُرمَ في نسبه بشيء، تولّى الله الثناء عليه بالسلام؛ أما عيسى عليه السلام فلمّا وُلد من غير أب، واحتاج المقام إلى إظهار براءته وبراءة أمه الصدّيقة، أنطقه الله ليُعلن عن نفسه أنه محلُّ سلامِ الله وأمانه، وليكون نطقُه في المهد أعظمَ برهانٍ على طهارة مولده.

الأمان الإلهي في المواطن الثلاثة: فقد أشار المفسرون إلى أن "السلام" هنا يتضمن السلامة من كل سوء، والأمان من فزع هذه المواطن الثلاثة، حيث يكون الإنسان في أضعف حالاته وأحوجها إلى لطف الله:

ففي **يوم مولده:** سلم من نزغ الشيطان وطعنه الذي يمسّ كل مولود، وولد ليكون آيةً وبرهانًا قاطعًا على براءة أمه الطاهرة مريم عليها السلام من إفك المفترين.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ **فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا** ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ (**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**) [63]

قال النووي (ظاهر الحديث اختصاص هذه الفضيلة بعيسى وأمه، وأشار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يشاركون فيها، أي لعصمتهم من الشيطان، وإنما نص على مريم وعيسى فقط لدعوة امرأة عمران ، وغيرهما من بقية الأنبياء ملحق بهما)[64].

---

[62]) رواه ابن ماجة ج12 ص 128 رقم 4095
[63]) رواه البخاري ج11 ص 246 رقم 3177
[64]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج1 ص 148

وفي **يوم موته**: يكون قد نزل في آخر الزمان حكمًا مقسطًا، كاسرًا للصليب، ومؤتمًّا بإمام المسلمين في الصلاة؛ إعلانًا لاتحاد رسالة الأنبياء، ثم يقبضه الله إليه في سلامةٍ وطمأنينةٍ وكرامة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ (يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ)[65]

وفي **يوم بعثه حيًّا**: يقوم آمنًا من الفزع الأكبر، ليكون شهيدًا على قومه، ويُلقّنه الله الحجة البالغة في موقف الحساب العظيم؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (يُلَقَّى عِيسَى حُجَّتَهُ فَلَقَّاهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ" قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فَلَقَّاهُ اللَّهُ "**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**.. الْآيَةَ)[66].

وهكذا جمع عيسى عليه السلام في هذه الكلمات المعدودات بين إقراره التام بالعبودية، وتبرئة ساحة النبوة من كل ادّعاء باطل، واستشعار معيّة الله وحفظه في رحلة الوجود بأكملها، من المهد إلى اللحد، ومن اللحد إلى الخلد.

قوله (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) (34-35) اسم الإشارة عائد إلى ما تقدم من وصف لعيسى ابن مريم من حيث طبيعته البشرية وصفاته الخلقية ليحسم ما اختلف فيه البشر بشأنه.

فقد اختلف الناس في صفة عيسى بن مريم على مشارب شتى حتى تنكبوا وجه الحق فيه ، إذ تدور أقوال الضالين حوله أنه ابن الله أو هو الإله ، وقد نفى الله أن يكون له ولد ، فإن ضعفت العقول عن استيعاب خلق الله لعيسى بدون أب ، فإن ذلك راجع لضعفها عن استيعاب قدرة الله في الخلق أو تصورها ، وفي ذلك تهوين منهم لشأن الله تعالى ، وعلوه على البشر ، وأنه سبحانه بائن من خلقه .

في قولِ تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: 35] دلالةً قاطعةً على كمالِ القدرة الإلهية، وسرعةِ إنفاذِ المشيئة الربانية دون كلفةٍ أو معاناة. فالكونُ الفسيحُ بكلِّ ما فيه من عوالمَ وأفلاكٍ إنما برزَ من العدمِ إلى الوجودِ بمجردِ صدورِ هذا الأمرِ الإلهيِّ الموجز، إذ قال له: «كُن» فكانَ في لمحِ البصر، وما يتجددُ في هذا الكونِ من خلقٍ وتكوينٍ على مرِّ الأزمان لا يخرجُ عن هذا الناموسِ الإلهيِّ المحكمِ بين الكافِ والنون؛ مصداقًا لقوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: 40).

وقد استنبطَ أئمةُ التفسير وعلماءُ البيانِ من مجيءِ الفعلِ ﴿فَيَكُونُ﴾ بصيغةِ المضارعةِ الدالةِ على التجددِ والاستمرار، أنَّ أمرَ اللهِ وخلقَه لا ينفدانِ أبدًا، بل هو سبحانه في شأنٍ دائمٍ من الإيجادِ والإمداد[67].

ويؤكدُ ذلك ما أخرجه الإمامُ البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» وقال: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ».

---

[65]) رواه أحمد ج15 ص 12 رقم 6971

[66]) رواه الترمذي ج10 ص 325 رقم 2988 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج7 ص 62 رقم 3062

[67]) د أكرم كساب :

فإذا كان هذا شأنُ الخالقِ العظيمِ في طلاقةِ قدرته، فعلامَ يشتطُّ المجادلون في شأنِ خلقِ عيسى بنِ مريمَ عليه السلام من غيرِ أب؟! إنَّ خلقَه على اللهِ هيّنٌ يسير، وما هو إلا مخلوقٌ اصطفاه اللهُ بكلمتِه؛ ولذا جاءَ البيانُ القرآنيُّ حاسمًا في ردِّ غلوِّهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 171]. وقد حذَّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أُمَّتَه من هذا المزلقِ الخطير، فقال فيما رواه البخاري: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».

ثم تأتي الآيةُ الكريمةُ لتقرِّرَ جوهرَ التوحيدِ الخالصِ على لسانِ المسيحِ نفسِه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 36]. إنَّ إخلاصَ العبادةِ للهِ وحدَه هو السيرُ الحثيثُ على الصراطِ المستقيم، الذي يمثِّلُ أقصرَ طريقٍ وأقومَه لبلوغِ مرضاةِ الله؛ إذ إنَّ العلاقةَ بين العبدِ وربِّه في الإسلامِ علاقةٌ مباشرةٌ لا تشوبُها وساطةٌ ولا حجاب. فالعبدُ يناجي خالقَه بالصلاةِ والدعاءِ والذكرِ دونَ الحاجةِ إلى واسطةٍ من نبيٍّ مرسلٍ أو ملكٍ مقرَّب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186)

وبهذه الكلمةِ الجامعةِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، يدمغُ القرآنُ عقائدَ التثليثِ والوساطةِ من جذورها، ويقرِّرُ مبدأً عقديًّا راسخًا مفادُه أنَّ الأنبياءَ والمرسلين إنما بُعثوا ليربطوا الخلقَ بالخالق، لا ليجعلوا من أنفسهم أندادًا أو وسطاءَ يُعبدون من دون الله. وهذا ما أشار إليه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمه الله بقوله: «إنَّ الرسلَ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعين إنما بُعثوا بتحقيقِ التوحيدِ وإخلاصِ الدينِ للهِ وحدَه، فلا يُدعى إلا الله، ولا يُستغاثُ إلا بالله، ولا يُتوكَّلُ إلا على الله». ويتجلَّى هذا المعنى في أبهى صورِه في قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 79-80).

لو تنزّلنا مع المخالفين من النصارى في ميدان الجدل والمناظرة، وسلّمنا جدلًا بما يزعمون من بنوّة المسيح عليه السلام لله –تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا–، لبقي السؤال الفطريّ والعقليّ قائمًا يُلقي بظلاله على العقول السليمة : لماذا نُعرض عن التوجّه بالعبادة الخالصة لله رب العالمين مباشرة، ونصرفها لابنه؟ !أليس الأصل في العبودية أن تُساق إلى الخالق الأوحد دون واسطة أو شريك؟

وإذا مضينا معهم خطوة أخرى في هذا التسليم الجدلي، وافترضنا صحة قولهم بالتجسّد والاتحاد في عقيدة "الثالوث" المؤلّفة من (الأب، والابن، والروح القدس)، فإنّ التساؤل يغدو أشدّ إلحاحًا وأعمق دلالة: ما الحكمة في أن نعبد إلهًا يتّخذ صورة البشر الفانية فيما يُسمّونه بـ "الناسوت"، مقترنًا بطبيعته الإلهية التي يُطلقون عليها "اللاهوت"؟ أليس الأجدر بالعقل المؤمن أن يُجرّد "اللاهوت" عن أدران "الناسوت"، ويعبد إلهًا منزّهًا مطلقًا، متعاليًا عن القيود، غير متجسّد في صورة مخلوقٍ عاجزٍ تكتنفه النواقص، ويفتقر في بقائه إلى الغذاء والإخراج؟!

وهذا المعنى الجليل هو ما قرّره القرآن الكريم بأبلغ بيان وأوضح برهان، حين كشف حقيقة المسيح وأمه عليهما السلام، وردّهما إلى بشريتهما الصادقة المفتقرة إلى الله، فقال سبحانه :﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: 75)

وقد وقف أئمة التفسير وفقهاء الأمة عند قوله تعالى) :كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (وقفة تأمّلٍ واستدلال؛ إذ أجمعوا على أنّ من احتاج إلى الطعام ليقيم صُلبه، استلزم ذلك بالضرورة حاجته إلى التخلّص من فضلاته، ومن اعتراه الضعف

والافتقار والنقص البشريّ، استحال في حقّه أن يكون إلهًا يُعبد من دون الله. فالإله الحق هو الصمد الغنيّ عن العالمين، الذي يُطعم ولا يُطعم، ويجير ولا يُجار عليه.

ولقد حسم النبي ﷺ هذه القضية حسماً قاطعاً، وقطع دابر الغلوّ في الأنبياء والصالحين، فوضع الميزان العدل لمقام المسيح عليه السلام في حديثه الشريف الذي رواه البخاري، حيث قال» :مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»

فأين هذا التوحيد الخالص الذي يربط العبد بخالقه مباشرة دون حُجُبٍ أو وسائط، من عقائد تُلزم أصحابها بتأليه بشرٍ يأكل ويشرب وينام ويتألم؟! إنّ الفطرة السليمة والعقل الصريح يأبيان إلّا أن يُفرِدَا الله بالعبودية، منزّهًا عن الشبيه والنظير، وعن الحلول والاتحاد والتجسيد.

قوله (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (37) اختلفت أحزاب النصارى في شأن عيسى بن مريم ، ما بين مفرط ومغالي ، قال ابن عاشور (فالاختلاف مؤذن بأنهم **كانوا متفقين** ولم يكن اليهود موافقين النصارى في شيء من الدين، وقد **كان النصارى على قول واحد على التوحيد في حياة الحواريين** ثم حدث الاختلاف في تلاميذهم)[68] ، قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59).

كما بيّن الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية أن أهل الكتاب افترقوا في عيسى عليه السلام إلى طوائف متباينة؛ فمن قائل إنه عبد الله ورسوله وهو الحق الذي بُعث به، ومن قائل إنه ابن الله، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة، ومن قائل إنه هو الله، فاستحق الكافرون بذلك الوعيد الشديد.

إن الذين فرّطوا في حق المسيح عليه السلام وجحدوا نبوته، يستوون في الضلال مع الذين غالوا فيه ورفعوه إلى مقام الألوهية بغير سلطان ولا برهان. وسيأتي ذلك اليوم المهيب الذي يتبرأ فيه عيسى عليه السلام من كل من غلا في شأنه؛ يوم يُنصب مشهدٌ عظيم، يريد المولى سبحانه أن يُشهد فيه الخلائق قاطبةً عاقبة الظالمين، وحسرة الكافرين، وهم في ذهولٍ مطبق من هول المفاجآت، وقد انكشفت الحجب، وأيقنوا يقيناً لا يخالطه شك أن الله هو الإله الواحد القهار، وأدركوا حقيقة مآل الدنيا ومن عليها، وأن الملك والمرجع يومئذٍ لله وحده.

وقد صوّرت سورة المائدة هذا الموقف الجليل بأبلغ بيان، حيث يقف نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام بين يدي ربه، معزولاً عن قومه، ليُسأل على رؤوس الأشهاد عن افتراءاتهم ومغالاتهم، فيُجيب في أدب النبوة وخشوع العبودية: (قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المائدة/116-118)).

وفي هذا السياق القرآني البليغ تتجلى براءة الأنبياء التامة من انحرافات أتباعهم، وتقوم الحجة الدامغة على كل من زاغ عن عقيدة التوحيد الخالص.

---

[68]) التحرير والتنوير ج16 ص 39

قوله (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (38) لقد جاءت صيغتا التعجب في قوله تعالى» :أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ «لتفيد المبالغة البليغة في بيان انكشاف الحقائق يوم العرض الأكبر؛ وذلك تقريعاً لهم وتشهيراً بباطلهم، حتى تنقطع حجتهم وتخرس ألسنتهم فلا يجدون مساغاً لعذر، ولا سبيلاً لاعتذار. وقد أشار أئمة التفسير، كالطبري وابن كثير، إلى أن هذا التعجب إنما هو من شدة سمعهم وإبصارهم يوم القيامة حين يزول عنهم الغطاء، بعد أن كانوا في الدنيا صماً بكماً عمياً عن آيات الله البينات.

إن هؤلاء الذين اتخذوا عيسى بن مريم إلهاً من دون الله، لا عذر لهم البتة في ضلالهم ولا شبهة تدرأ عنهم الحجة؛ فقد قرعت أسماعهم البراهين القاطعة والرسالات السماوية التي تصدح بأن المسيح عليه السلام ما هو إلا عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. كما شهدت أبصارهم وعقولهم دلائل بشريته التي لا تليق بجلال الألوهية؛ إذ رأوا وعلموا يقيناً أنه بشرٌ يأكل الطعام ويشرب الشراب، ويعتريه ما يعتري سائر الخلق من الحاجة والافتقار، وذلك كله بإقرارهم واعترافهم في صميم عقائدهم وكتبهم، مصداقاً لقوله تعالى في شأنه وشأن أمه "كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ "(المائدة: 75).

ومن ثمّ، فإن الجزاء العادل والمصير المحتوم للمصرين على عبادته والمكابرين عن توحيد الله، أن يُحجبوا يوم القيامة عن رؤية ربهم ومولاهم، وأن يضلوا عن طريق النجاة كما ضلوا عن جادة الحق في دار الدنيا؛ فيُساقون إلى حتفهم وراء معبوداتهم الباطلة. وقد تجلى هذا المشهد المهيب في الحديث الصحيح " لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ"

عن النبي ﷺ قال (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ وَغُبَّرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ فَقَالُوا عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الْأَوَّلِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا فَيُقَالُ مَاذَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ قَالُوا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)[69].

قوله (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (39) فسبب الحسرة هو انقضاء الأمر بذبح الموت على هيئة كبش ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **يُؤْتَى بِالْمَوْتِ** كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ **يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ** ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا (وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) [70]

---

[69]) رواه البخاري ج14 ص 74 رقم 4215

[70]) رواه البخاري ج14 ص 358 رقم 4361

قوله (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (40) فالله سبحانه هو الحي القيوم الباقي الذي لا يزول، وأن ما سواه من الخلائق صائرٌ إلى العدم والفناء، مصداقًا لقوله تعالى :(**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**) (الرحمن: 26-27]. غير أن هذا الفناء ليس نهاية المطاف؛ بل يعقبه بعثٌ ونشور، وحسابٌ دقيقٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ثم جزاءٌ عادلٌ يوفي كلَّ نفسٍ ما كسبت.

فالوارث سبحانه هو الله الباقي بعد فناء الخلق ، فهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها [71]، قال تعالى : (وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (آل عمران:180) (وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الحديد:10) .

إن استئثار الحق سبحانه بوصف" الوارث "يرسخ في الوجدان أنه **المالك الحقيقي** الذي لا شريك له في ملكه ولا منازع له في سلطانه. ولتقريب هذا المعنى الجليل إلى الأذهان، نجد أن الوارث في أعراف البشر هو من تؤول إليه تركة مورثه بحقٍّ شرعي مقطوع لا يزاحمه فيه أحد، وتظل هذه التركة محفوظةً وموقوفةً لصاحبها حتى يأذن الله بانتقالها إليه، فلا يملك أحدٌ التصرف فيها بغير إذنه. وهكذا شأن العباد مع ربهم؛ فهم وإن توهموا أنهم يملكون الأموال والضياع، فإنما هم **مستخلفون فيها** إلى أجلٍ مسمى، ثم تعود **الملكية خالصةً** لمالك الملك الحق.

وقد صوّر النبي ﷺ هذا المعنى بأبلغ بيان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يَ**قُولُ الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ**: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، **وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ]** رواه مسلم. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله مبينًا حقيقة ملك العبد" :**العبد وماله لمولاه**، فما بيد العبد عاريةٌ مستردة، ووديعةٌ مسترجعة، **والمالك على الحقيقة هو الله وحده**."

ولعل أبلغ مثالٍ يوضح حال الإنسان في هذه الدنيا، أن ننظر إلى ملكٍ عظيمٍ أوشك عهده على الانقضاء، وعلم الجميع أن سلطانه وخزائنه ستؤول عما قريب إلى وارثه الشرعي؛ فإن الحاشية والخدم العقلاء في قصره لا يغترون ببريق الملك الزائل، بل يسارعون إلى كسب ودّ الوارث ورضاه، لعلمهم أن مقاليد الأمور ستصير إليه بعد أيام معدودات، وأن بقاءهم وأمانهم مرهونٌ برضا خلفه. فما أجدر بالعاقل أن يدرك أن الدنيا قصرٌ زائل، وأن الله هو الوارث الباقي، فيبادر إلى مرضاته، وينفق مما استخلفه فيه قبل أن يؤول الملك كله إلى صاحبه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

---

[71]) أسماء الله الحسنى ج14 ص 19